لم أكن أدري

من الواضح أن ثمة شيئًا ما يربط بيننا، وأن ثمة علاقة باتت تجمع بيننا منذ أن عاهدتها.

قد تبدو المسألة بالفعل غريبة وغامضة منذ وقت ليس بقصير عندما دخلتها أول مرة متكئة على العصا، أعاني من آثار جلطة في شرايين ساقي اليمنى، وكأن كل شيء معد ومحسوب منذ زمن بعيد دون إذن أو موافقة.

أرقد على السرير بجسدي الهزيل داخل إحدى غرف المستشفى الكبير، أعيش حالة من التعب والإجهاد، كادت أن تقضي عليَّ، تعتصرني الآلام إثر تلك الجلطة في شرايين ساقي اليمنى، جعلتني أحاول التشبث بآخر خيط ضوء ساقط من خلف ثنايا النافذة.

استدار الطبيب ومضى في طريقه على غير عادته، يهمس لتلك ويتحدث لهذا، ويشير بيده لكل من حوله هنا وهناك، وبصري يسابق ابنتي التي تتبعه، مصغية لكل حرف كلمة حتى انتهى بها المطاف حيث أرقد.

عاد بصري يلاحقها، وما أن وقع عليها حتى وجدتها تبكي وتبكي، وهي قابعة على أرضية الغرفة ملتصقة بسريري، وقد بدا عليها علامات الحزن الدفين وأحاط بها الفزع من أمر جلل.

تطلعت إليها وأنا ما زلت راقدة أتأوه من شدة الألم، حتى تلاقت أبصارنا، ونظر كل منا إلى الآخر نظرة غارقة في بحر من الدموع، حتى هربت أبصارنا وسبحت ما بين جدران الغرفة، وشعرت لأول وهلة بالخوف وملأ اليأس نفسي، واستبد منها، أفزعتها الآلام وانكسار ابنتي وحسرتها، فبكيت بمرارة وزادت حسرتها وهي ترمق جسدي الهزيل وتمسح عني بقايا العرق المتصبب.

حاولت وحاولت أن أعرف ماذا قال لها الطبيب، أبت، وأبت وأخذتني ما بين أحضانها وأخذت تبكي وتبكي، ولم يكن هناك شك أن هناك أمرًا جللًا يخفيه الجميع، ولقد حاولت جهدي أن أعرف دون جدوى، وما هي إلا لحظات قليلة مرت حتى وجدت ابنتي تمسك القلم وتوقع بيد تملكتها رعشة خفيفة على الأوراق المتراصة ورقة تلو الأخرى، والدموع تمتزج مع حبر القلم على الأوراق.

قد رأيت الطبيب يدخل غرفة العمليات ومن خلفه وعن يمينه ويساره طاقم التمريض وكانت آخر الكلمات التي ترصدتها أذني: سنحاول إنقاذها إن شاء الله، وكنت أكره أن أغيب عن الوعي مرة أخرى وأعود بلا .....

وبعد فترة صمت طالت عدت أسمع قوله: يتم نقلها بسرعة إلى غرفة العناية المركزة، وخيم الصمت من جديد برهة من الزمن وقد بدا عليهم الحزن الشديد.

تذكرته ولكني كنت آمل عبثًا فقد استمر منه التجاهل والجحود ونكران الجميل، حتى بعد أن دخلت المستشفى إثر تلك الجلطة التي أصابت شرايين ساقي اليمنى، وكأن جسدي الهزيل أبى أن يسير دمه بداخله فزجره ونهره واحتجزه في مكانه، لا يبرحه حتى تخثر داخل شرايين ساقي اليمنى.

ماذا يضيره أن يمنحني أدنى حقي في إرثي الذي ظللت أهبه إياه، منذ زمن بعيد ومر بي الزمن وأخذت من الصدمة ما أخذت، وهو ما زال في عناده وكبره اللا متناهي أبى، وأبى أن يرد الحقوق إلى أهلها.

تذكرت تحذيرات ابنتي، وكيف أني صفعتها على خديها وعجبت.. وعجبت لفعلته وكأنه ليس بأخي الذي عاهدته منذ طفولتنا.. أيكون حقًّا قد أصابته أمراض الشيخوخة والهرم؟

رجوته ورجوته عله يسمع رجائي، ولكن أحدًا لم ينتبه! أو يسأل عني!

لشد ما كنت حزينة مشفقة عليه كارهة لنكرانه وجحوده.

عدت أحاول وحاولت أن أحرك قدمي اليمنى، أتحسسها ولكن محاولاتي لم تفلح، ولم أستطع ولم أكن أدري ما بي في تلك اللحظة.

ما لي لا أحس بساقي اليمنى؟ ما لي لا أستطيع أن أحرك قدمي اليمنى؟ ما لهم يقفون شاردي الذهن، وكأن على أبصارهم غشاوة!

فأكثر ما كان يقلقني هذا الإحساس الغريب، لم أكن أريد منهم شيئًا سوى أن أطمئن.

أحسست بضربات قلبي تكابد، تكاد أن تصرعني، ولكنها ما لبثت أن خف حسيسها رويدًا رويدًا، ولم تدم طويلًا، وسرت قشعريرة خفيفة في جسدي الهزيل، حتى أخذت نبضات قلبي تضعف وتتلاشى.